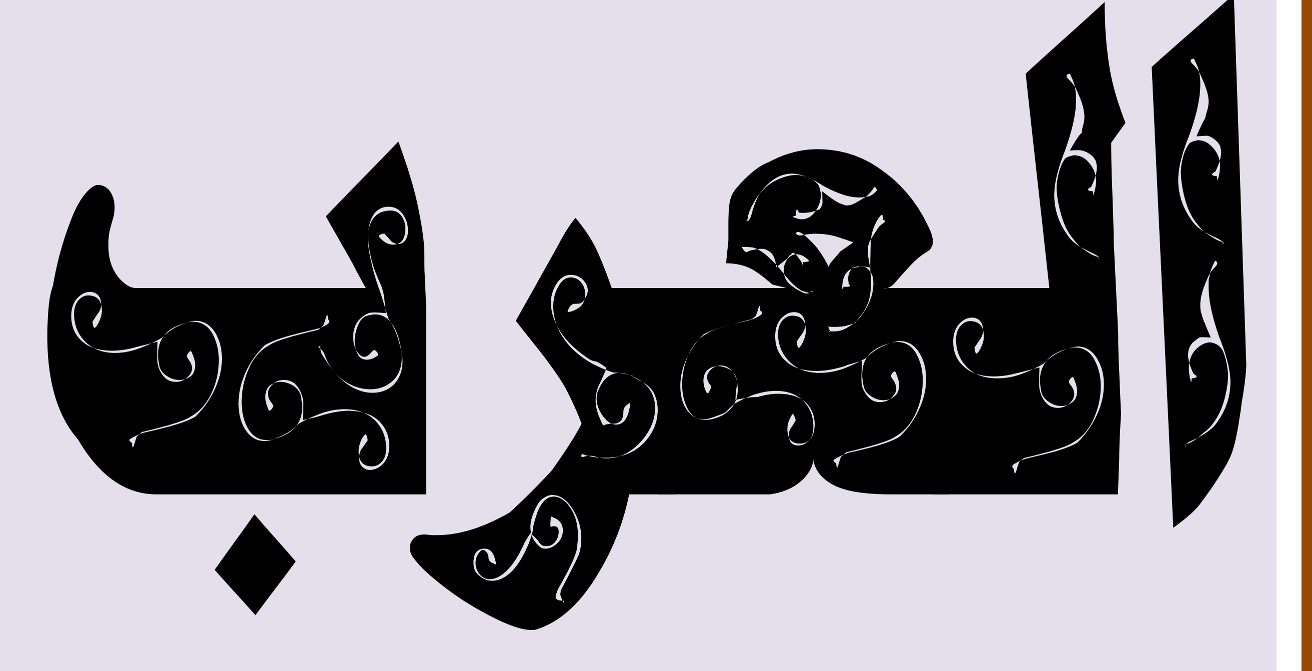
الدكتور متعب مناف





بين التجارب والنكسات الحضارية







العرب بين التجارب والنكسات الحضارية

الدكتور متعب مناف

بغداد 1966

العرب أمة قديمة فى اصولها الحضارية والبشـــرية فقد ورثوا تراث الحضارات المعينية والسبائية والحميرية فى اليمن من جهة وحضـارات الفرات والنيل وأرض كنعان وفينيقية من جهة ثانية وقـد تقطر نتيجـة لهـذه الوراثة التاريخية الضخمة عطر حضارى انتقل من جيل الى اجيل آخر وهذا العطر وان احتفظ بتأثيره الحضارى الا انه فقد الهياكل التى يستطيع ان يترك طابعه عليها فقد تعرضت الامة العربية لنكبات حضارية وتاريخية وسياسية اضعفت الابنيـة التى تتمكن من ان ترفع الشعلة الحضارية المتوارثه •

ولعل اهم النكبات على الصعيد الحضارى التى تعرضت لها الامة العربيـــة هى انهيار سد مأرب فى اليمن المثلث الخصب من شبه جزيرة العرب فان اندثار الحضـارات التى قامت فى ذلك الجزء من الوطن العربي اضعفت من الناحيـة الاستراتيجية حضاريا وواقعيا الاندفاع العربى نحو افريقيا من جهة والاتصـال بآسيا من جهة اخرى لان اليمن تمثل فى الواقع همزة الوصل بين شبه جزيرة العرب وبين افريقيا ثم تشكل بنفس الوقت جسرا للعبور الى آسيا وجنوب شرقيها بشكل خاص ، الا ان انهيار حضـارة المثلث الخصب فى شـبه جزيرة العرب افقد العرب القابلية فى استغلال مركز اليمن الاســـتراتيجى وجعلهم يتجهون نحو الشـــمال بدلا من ان يرتادوا أرض القـارة الافريقيـة ويقوموا بعمليـة استكشافية رائدة لا تقل عما قام به الاوربيـــون الاوائل من اكتشاف للقارة الامريكية او اســـتراليا ومن المؤكـــد ان الحضـــارة العربية لو تمكنت من الاستمرار بارض اليمن فان العرب سينقلبون الى دولة بحرية من الدرجة الاولى مما يترتب عليه قيام تصميم عربى للتوسع عن طريق استخدام السفن البحرية والسير بها فى جميع الاتجاهـــات حيث تكتشف اراض جديدة تكون محطات للتجارة والفكر فى آن واحد •

دراسات في القومية العربية



الا ان فشل الحضارة العربية فى جنوب الجزيرة وعلى الاخص فى اليمن حال دون استمرار قوتها ذات الدفع الحضاري العالى ووجه العرب نحو الحركة عن طريق استخدام القوافل وواسطتها الرئيسية الجمال بما تتصف به من البطء فى الحركة وكثرة ما تتطلبه من جهد لحملها على السفر على الرغم من قصر المسافة التى تقطعها فى السفرة الواحدة وليس هناك من شك بان القول الذي يصف الجمل بكونه سفينة الصحراء لا يستطيع ان يعوض عن السفن الحقيقية التي تمخر عباب البحر وتعود بالكسب المادي والمعنوي على الامة التي تسير تلك السفن فى خدمتها •

ومجمل القول ان العرب لم يستطيعوا خلال تاريخهم الطويل ان يبنوا قوة بحرية لها القابلية على الحرب والتجارة توصلهم الى مركز البرتغال او جمهوريات ايطاليا الجنوبية وبذلك اضاع العرب فرصا حضارية سنحت لهم لكي ينشروا الحضارة العربية ويحصلوا على مواد خام لتشييد صروح حضارية تختلف الى حد كبير عن تلك التي خلفوها بعد ان انقلبوا من حياة المغامرة البحرية الى حياة السير والتنقل بشكل جماعات فى صحراء جرداء لا تقودهم حركتهم تلك الا الى واحة للكلأ او مكان يستطيعون ان يستريحوا به من عناء سفرهم الطويل •

وقد فوت العرب فرصة ثانية فى حياتهم التاريخية لكي يصبحوا دولة بحرية عندما وصلوا الى شمال افريقيا فقد كان جل اهتمامهم ان يتوسعوا فى اليابسة وان يتركوا التوسع عن طريق البحر فقد احرق طارق بن زياد القائد العربي السفن بعد ان وصل الى شاطىء جزيرة الاندلس ويدل هذا العمل على قلة دراية بالنسبة لاستراتيجية الحرب البحرية •

أما من وجهة نظر التكوين الحضاري فأن العرب فى شمال افريقيا شأنهم شأن القبائل العربية القديمة اتصفوا بالتردد فى اتخاذ البحر سبيلا حضاريا يستطيعون بواسطته ان يكسبوا علما وتجارة فى الوقت الذي كانوا هم فى مركز يمكنهم من تصدير ما عندهم من فائض حضاري والاستفادة مما لدى الامم الاخرى وذلك عن طريق التفاعل الحضارى معها عن طريق الحرب

اذا كان الاختلاف كبيرا بين القيم الحضارية العربية وتلك التى يراد التعامل معها او التجارة اذا كان هناك مجال للتفاهم على وسائل متبادلة للمكسب التجاري والاستفادة من تقايض السلع الحضارية والمادية .

وليس بخاف ما للبحر من أثر فى انتعاش الحضارة من جهة وتزويدها بتفاعلات حضارية من جهة اخرى ثم بالتالى خلق الاجهزة السياسية وانظمتها وما يتبعها من جهات مختصة فى شؤون تمويل الرحلات والاشراف عليها وايجاد اسواق لتصريف السلع التي تتعامل بها بما يعود بالفائدة على أفراد الدول ذات النفوذ البحري ويساعد على تكامل بنائها سياسيا واقتصاديا .

واذا قارنا بين الحضارة اليونانية فى القديم وبين الحضارات التي سبقتها وعاصرتها نرى ان اليونانيين استطاعوا ان يكونوا رجال بحر قبل ان يتدربوا على الحركة والعمل فى اليابسة وبذلك اخذت اليونان القديمة احسن ما فى الشرق من حضارة ولولا السفن اليونانية ورحلاتها فى البحر المتوسط لما استطاعت الحضارة اليونانية القديمة من تطعيم فكرها الحضاري بما كان للشرق وخصوصا فى مصر من ابعاد حضارية عميقة وناضجة .

وبالفعل فقد بنيت الحضارة اليونانية التى سبقت ظهور المسيحية بحوالى ثلاثة قرون على ما نقلته السفن اليونانية من فكر شرقى ورجال وبضائع ولولا هذه الحركة السريعة للنقل البحرى لما استطاعت اليونان ان تحصل على فكر الشرق العربى القديم وان تضمن لنفسها سلعا ورجالا يقومون بالعمل والجهد بينما يفكر اليونانيون فى مسائل تخص الفلسفة وما يتصل بها من علم وما يترتب عليهما من امتدادات فكرية تبلورت فيما كتبه افلاطون وارسطو واخذت تنتقل من جيل الى جيل متحدية الزمن والانسان فهي تعيش فى كل عصر وستظل تملك القابلية على الحياة فى المستقبل .

وبما ان الحضارة فى الشرق العربى القديم كانت حضارة يابسة بالدرجة الاولى فانها اعتمدت على الزراعة وان احتلت التجارة جانبا ضئيلا من حياتها

الاقتصادية وعلاقاتها السياسية . بالاضافة الى ان الحضارة اليابسة تستدعى جهدا لتثبيت الاسس الحضارية عن طريق استنزاف الموارد الطبيعية للارض نفسها لكى يصبح مستطاعا اشباع الحاجات المتكاثرة لسكان الحضارات ذات التجمعات البشرية الهائلة والا فان الحرب امر لا محالة منه لكى تخفف الضائقة عن ألبشر انفسهم ويعود التوازن بين الانسان والطبيعة الى سابق عهده .

وتبعا للحضارة على اليابسة وهي الصفة التي تميزت بها حضارة العرب فان وحدة الحياة الاجتماعية العربية اعتمدت اعتمادا كليا على فئة قليلة من الافراد تقوم روابطها على الدم والقرابة وقد سميت هذه الوحدة الاجتماعية باسم (القبيلة) .

وهذه الظاهرة الاجتماعية المتمثلة بالقبيلة نفسها لم تكن امرا عفويا وانما كانت ناتجا طبيعيا لحياة اليابسة التي اتبعتها الحضارة العربية خلال فتراتها الطويلة . ومن غير المشكوك فيه ان القبيلة كلما قل عدد افرادها كلما ضمنت لنفسها حركة سريعة وسط طبيعة قاسية واستطاعت فى الوقت نفسه ان تقيم توازنا بينها وبين ما تجود به الارض الجرداء مما لا يكفى الا الضروريات لادامة حياة القبيلة .

وقد نشأ نتيجة اختزال التركيب السكاني عبر الحقب المختلفة للحضارة العربية الى وحدة صغيرة هي (القبيلة) ان انصفت العلاقات بين افراد القبيلة أنفسهم بنوع من الرابطة القوية واصبح الولاء للقبيلة فوق كل اعتبار وتنج عن ذلك ان افراد هذه الوحدة الاجتماعية يجب أن يساعد بعضهم بعضا الى حد هدر حقوق الاخرين تأكيدا على مبدأ التضامن ضمن نطاق القبيلة نفسها .

ولابد لمثل هذه القبيلة من توجيه يضمن استمرار العلائق الاجتماعية والاقتصادية بين افرادها وبذا اصبح على رأس كل قبيلة شخص توكل اليه المهام الخاصة بجوانب الحياة المختلفة ويكون قضاؤه جازما دون ان يعترض عليه من قبل أفراد القبيلة أنفسهم .

وقد نشأ عن ظهور القبيلة كوحدة اجتماعية صغيرة ان سادت بين العرب أنفسهم روابط اعتمدت قبل كل شيء على صلة القرابة والدم وكلما كانت تلك القرابة قريبة اصبح من الواجب ان يكون سلوك الافراد منسجما وما نسميه بالتقاليد القبلية ، وقد اصبحت تقاليد الحياة القبلية على مر الزمن الحضارى اعرافا حفضت ودافع عنها العرب على اختلاف واقعهم المكاني وكأنهم يدافعون عن حياتهم لانهم فى الحقيقة يدافعون عن وجودهم كافراد فى قبيلة وان اختلف واقعها المكاني والقطر الذي تتحرك او تميل الى الاستيطان فيه مما اضعف الشعور القومي لدى الكثيرين من العرب واتجه بولائهم صوب قبائلهم او وحداتهم الاجتماعية التي تشبع العديد من حاجاتهم وتوفر لهم عنصر الاطمئنان والحماية بصرف النظر عما يتهددهم من اخطار .

أما شيخ القبيلة ذو الشخصية المتنفذة فانه ظل يمارس نفوذه دون ان يكون هناك ما يمنعه من ممارسة سيطرته على كل فرد من افراد قبيلته وما يملكونه او قد يملكونه فى المستقبل وبذلك نشأت فكرة التسلط من قبل ذوي النفوذ على اولئك الذين يخضعون لامرتهم وقد ازداد التسلط طبعا بازدياد الحاجة اليه نتيجة ضعف الرباطات القبلية بعد ان جنحت بعض القبائل نحو الاستقرار وبذلك بدأ الشيخ يتحول بين ليلة وضحاها الى حاكم سياسى تقمص سلطة الملك او الحاكم المتنفذ ولكنه ما زال يحمل فى قرارة نفسه مخلفات شيخ القبيلة وما يتصل بتلك المخلفات من نفوذ وتحكم .

وقد احتاج الحاكم الجديد وعلى الاخص بعد ان اتسعت التنظيمات البشرية التي يتسلط عليها الى قوة تدعمه تمثلت قبل كل شيء فى انجاب العديد من الابناء الذين يؤمنون للحاكم سياجا قويا ضد من تسول له نفسه العبث بحكمه او التعرض لهيبة سلطانه مما ادى الى نشوء ما يسمى (بالحريم) وان لعب مركز (الحريم) دورا سلبيا فى القضاء على الحاكم نفسه او تنصيب من يستطيع ان يقرأ افكار اولئك المتنفذين فى دنيا الحريم

وبذلك يضمن لنفسه السلطة .

وهكذا فقد عاش مبدأ التسلط مع الحضارة العربية في ادوارها المختلفة فلم تسلم منه القبيلة الصغيرة التي اتخذت الحل والترحال وسيلة لاثبات وجودها في الحياة والواقع كما اثر نظام التسلط نفسه على التشكيلات السياسية عندما انتقل التنظيم الاجتماعي من مستوى القبيلة الى صعيد الدولة ولم يطرأ تغير على شخص الحاكم وسلطته ماخلا اعتماده على جماعة من ابنائه والمقربين اليه يتخذهم سندا للذود عن سلطته ولتمكينهم في المستقبل من ان يرثوا السلطة والسلطان .

ونعود ثانية الى مفهوم الحضارة ذات الجذور البحرية فنؤكد بأن الحضارات الاوربية في القرون الوسطى على الرغم من الركود في المجتمع والفكر ووقوع الفرد الاوربي تحت سيطرة الكنيسة والاقطاع وانعدام سبل الحركة والحياة عدا الزراعة التي عول عليها لسد الحاجات الضرورية وتأكيد الصلة بين التابعين والاقطاعيين ، في مثل هذا الجو الاسن الذي افتقر الى اتفه تعبير يعكس الحياة قامت دول وجمهوريات استطاعت ان تصير البحر الابيض المتوسط بحيرة ايطالية وتمول مغامرة توسعية هي « الحرب الصليبية » التي دامت اكثر من اربعمائة سنة مما يثبت دون تردد النتائج الواقعية لسيطرة جمهوريات ايطاليا الجنوبية على البحر واستخدامه كواسطة للتوسع والتجارة .

وفي الفترة التي تلت القرون الوسطى برزت اهمية البحر وخاصيته الحضارية بشكل اوضح فأن بريطانيا هي اشد الاقطار الاوربية فقرا وأكثرها حاجة الى المعونات والصدقات الخارجية فقد وجدت الجزر البريطانية في معزل عن القارة الاوربية مما يزيد في موقفها سوء واحتياجاتها ضرورة ولما كانت القارة الاوربية نفسها في تلك الفترة المتميزة بالاصلاح الديني والاضطراب السياسي والفكري في شغل شاغل عن جزر منفصلة عنها كالجزر البريطانية فقد شرعت انكلترا في استغلال البحر وبالفعل استطاعت ان تثبت نجاح محاولاتها هذه عندما هزم الاسطول البريطاني القوة البحرية الاسبانية

متمثلة فى اسطولها « الارمادا » أي الذي لا يقهر ، مما اكسب بريطانيا وملكتها اليزابيث الاولى سمعة اوربية ودولية مكنتها من بسط نفوذها الاستعماري وانجاح عملياتها فى القرصنة الدولية فيما وراء البحار . وقد حاول نابوليون الاول ان يكسر شوكة بريطانيا بفرض حصار اقتصادي عليها الا انه فشل نظرا لمركز الاسطول البريطاني فى الحرب والتجارة الدوليتين وانتهت سياسة التصدى الذي انتهجها نابوليون الاول الى وقوع معركة (ابي قير) التي تحطم فيها اسطول نابوليون واضطره هذا الفشل العسكري فى عرض البحر وبعد ان تبخرت احلامه فى بناء امبراطوريته فى مصر ان يعود ثانية الى فرنسا فى باخرة للفحم خوفا من قطع الاسطول البريطاني المنتشرة فى البحر الابيض المتوسط آنذاك .

وفى القرن العشرين لعبت الاساطيل البحرية والتجارية الدور الاول فى نجاح سياسة وتجارة الدول التى تملكها واصبح عنصر المفاضلة بين دولة واخرى فى مجال التقدم الصناعي تقوم على اساس ما تبنيه من سفن ذات حمولات كبيرة وعلى الاخص بعد ظهور عابرات المحيطات وناقلات النفط الى حيز الوجود ، وبذلك اضحى لزاما على اية دولة تحترم نفسها ان تؤمن لها اسطولين تجاري وحربي يتفقان وما تريد تلك الدولة ان تنجزه فى مشاريع اقتصادية او تفكر فيه من مخططات فى دنيا السياسة يكون لها وزنها فقد تستغل القوة البحرية فى الكسب السياسى بمجرد التلويح بها وبما لها من طاقة مدمرة .

فمن المؤسف حقا ان الحضارة العربية على مر عصورها افتقرت الى القوة البحرية والتجارية التى تفتح امام العرب انفسهم ابواب المعرفة عن طريق السفر والتجربة كما تعمل على تطعيم الفكر العربى والحركة التجارية بالكثير من اسباب النمو والحياة .

فالحضارة العربية اذن « حضارة يابسة » تميزت ارضها بالجفاف مما اختزل سكانها الى مجموعات صغيرة تستطيع ان تتحرك بيسر وسهولة وان خضعت لسيطرة مطلقة يفرضها رجل بمفرده تفترض فيه الحكمة والمعرفة

والسداد فى الرأي والعمل مما مهد التربة السياسية لظهور الحكم الفردى الذى تمثل بالدكتاتورية والتسلط •

اما الميزة الثانية للحضارة العربية فهي انها حضارة فئة من الناس من ذوى الحظوة والجاه ومن يحسنون القول والتصرف فى مجالس الملوك واصحاب النفوذ والمال مما جعل العلم والمعرفة وقفا على تلك الحفنة من أتباع الرؤوس الحاكمة تزين بها بلاطاتها لكى تفاخر بها الامم وكأن رجال العرفان دمى او مصابيح للزينة توضع فى مجالسها عند الحاجة اليها في الوقت الذى يغط العامة من الناس فى سبات عقلى واجتماعى عميق •

وليس هذا ما يميز الحضارة العربية فقط فقد كانت الحضارةاليونانية فى اوجها فى الفترة التي سبقت ظهور المسيحية باربعة قرون وقفا على جماعة التزمها ذوو المال والنفوذ فى المجتمع اليوناني بشكل عام والاثيني بشكل خاص • فقد كان افلاطون فى اكثر من مرة مستشارا سياسيا لحاكم سيراكوز ومن الغريب انه فشل فى عمله هذا وان ارسطو اشتغل مهذبا للاسكندر المقدونى وغيره ن ابناء الملوك والحاكمين لكى يتمكن من السير فى خطته فى الكتابة والتأليف • أما روما فان قضاتها ورجال القانون فيها كانوا ملتزمين من قبل الاباطرة واصحاب المال والاقطاعيات •

الا ان ردود الفعل لهذا السلوك من قبل رجال الفكر ما لبثت ان سارت فى اتجاه معاكس واخذ ذوو المعرفة فى التمتع بقسط اكبر من الاستقلال ولعل امتزاج المسيحية بالتصوف والافلاطونية الجديدة فى العصورالوسطى قد قضى الى حد بعيد على السبيل الذى سلكه رجال المعرفة فى ربط انفسهم بعجلة السلطة والمال بينما بقى الفكر فى الحضارة العربية خاضعا للسلطة وسيفها وذهبها لان الحاكم قد مثل بشخصه كل ما يخضع الفرد العادى والمفكر لذا فان طاعته واجبة على كل من يسكن منطقة نفوذ السلطة والا اعتبر الاستقلال الفكري تحديا او خروجا على « وجوب الامتثال » مما يترتب عليه اتهام اصحابها بالخروج على القيم الاجتماعية والاعراف المتبعة مما عرض اهل الفكر والرأي الى عقوبات •

اقساها التنكيل والقتل •

وقد تسبب هذا الضغط من قبل السلطة على الفكر والمفكرين في ظهور دنيا من الشائعات والتقولات وجدت لها تربة ملائمة لدى العامة من الناس اولئك الذين يستصون ما يقال لهم فاما ان يستنكروه او يتفقون معه وقد يظهرون لا ابالية غبية تاركين الامور برمتها الى القضاء والقدر علما بان الاحداث تصلح نفسها وتتعهد كل منها بامر الاخرى دون الحاجة الى تدخل من الناس مثقفهم او عاميهم والا وصل الفساد مع تلك الايدى التي عبثت بما لا يعنيها فهي ولا شك ستنال عقابها العاجل او الاجل •

ومن افدح النكسات التى تعرضت لها الحضارة العربية فى تاريخها الطويل الحروب الصليبية والغزو التترى وكلاهما يعكس دون شك ما وصلت اليه الحضارة العربية من ضعف وتدهور بعد أن مرت بفترة تكاملها الحضارى لذا فان الحروب الصليبية والغزو التترى ليسا الا اختبارين من التاريخ نفسه لمدى القوة المرونة التي تتمتع بها الحضارة العربية فى أعقاب فترة طويلة من تماسكها الحضارى •

أما واقعهما التاريخى فانه يختلف عن التاريخ نفسه كحركة عامة ذات روح مستقل وانما يتأثر الواقع بالابعاد التى تتركها عوامل الزمان والمكان والقومية أو الوطنية على الحدث نفسه وبذلك يخضع الحدث للظروف المكونة له اكثر من اتباعه الحركة التاريخية فى التقاطها لامتداد الانسان مادة وفكرا فى فراغ من الزمن والعبث ورسم مفهوم للتاريخ على ضوئها يرقى فوق الاعتبارات الطبيعية التى تمد الحدث بعناصره الاولية

ومن وجهة نظر الواقع التاريخى فان المكون الرئيسى للحضارة العربية هو العرب انفسهم وهم مادة بشرية جمعت بين مخلفات لحضارة قديمة انجزها اسلافهم وحياة بدائية عاشها بعضهم فى مسطحات رملية هائلة أدى تفاعلها مع سوابقها الحضارية الى رغبة مشوبة بالخوف عكستها نظرتهم المتطلعة الى الحضارة الحاضرة •

أما العنصر الثاني من عناصر الحضارة العربية فهو الطبيعة أو الوعاء

الجغرافى ويتميز هذا العنصر بانه وان تميز ببعض الجوانب الايجابية التى تساعد على انماء الحضارة وازدهارها الا انه بشكله العام يعكس شكل منطقة من اقسى ما يمكن ان تظن به الطبيعة على البشر فاغلب الارض العربية صحراوية قاسية المسالك صعبة التضاريس يندر ان تتوفر بها احتياجات الافراد الا اذا واصل الفرد نهاره فى حل وترحال لكى يكفى ما يبقيه حيا وبذا ولدت صورة الانسان الزاهد الذى يقبل بالقليل ويحاول ان يقنع نفسه به الامر الذىبدل القبول بالقناعة والرضا على امل ان يتحسن وضع الفرد فى المستقبل القريب او البعيد فاذا لم تتحقق هذه الاهداف على بساطتها فان الزهد يصبح لاجل الزهد وتكون القناعة عندئذ كنزا لا يفنى لان الكنز الواقعي قد تبعثرت احلامه على رمال الصحراء واشواك الفاقه .

وهناك خرافة تاريخية هى ان الجزيرة العربية كانت أرضا خصبة ذات أثمار ونعيم ينعكس فى مساحات شاسعة من الارض الخضراء وبذا توفرت سبل العيش لعديد من سكان الجزيرة العربية مما ادى الى كثافة سكانية عالية الا أن تغير الظروف المناخية وأهمها انتقال الحزام الجليدي الى شمال اوربا اصاب المنطقة المدارية ــ ومنها ارض العرب ــ بجفاف عظيم قلبها الى صحراوات هائلة !

فاذا سلمنا بصحة هذه النظرية من ناحية جيولوجية فاننا لا يمكن ان نقبلها من ناحية الواقع التاريخي لان الجفاف لو تم لاتتاب الجزيرة العربية بكاملها ولهجرها اهلها دفعة واحدة الى مناطق يستطيعون فيها أن يوفروا متطلبات عيشهم بشكل افضل ولكن ما حدث هو ان الهجرات تمت بشكل « موجات » بدأت فى الالفه الرابع قبل الميلاد وانتهت بحركات التحرر الاسلامية بعد نجاح الدعوة الاسلامية ، فكيف تم ذلك ؟ وهل يمكن تعليله عن طريق استمرار الجفاف خلال هذه الحقبة الطويلة على شكل «مراحل» مما لا يسنده واقع عدا بعد الاخبار المنقولة وفولكلور متداول.

والواقع ان الجزيرة العربية مرت بادوار جيولوجية كغيرها من أقسام

سطح الارض خلال المراحل التى تركت طابعها بشكل تضاريس او براكين او صدوع عظيمة كالبحر الاحمر ولكن طبيعة الجزيرة نفسها وقابليتها على الزراعة لم تكن بأفضل مما هي عليه اليوم والدليل ان ما وصلنا عن الحضارات العربية القديمة يقتصر خبره على اليمن ومصر والعراق ولا يشير بقليل أو كثير الى حضارات نمت فى الربع الخالى او الاقسام الصحراوية البعيدة عن عالم الاكتشاف والمعرفة لذا فمن اقرب الفرضيات الى الصواب أن الجزيرة العربية كانت تعيش بظروفها الحالية فى الوقت الذى تمتعت فيه اليمن والمناطق الساحلية بحياة مدنية ورفاه اقتصادي جذب البدو من العرب انفسهم الى محاولات لاقتسام خيرات الاستقرار والتقدم الحضاري الا انهم ردوا على أعقابهم فى فترات القوة التى تميزت بها المدنيات فى اليمن وسواحل شبه الجزيرة العربية مما دفع القبائل الغازية الى الحركة البعيدة فى محاولة فى سبيل كسب جديد وبذا خرجوا من طوق الجزيرة العربية الى حدودها الشمالية او عبروا الى أفريقيا فى حالات أخرى لان البحر الاحمر كان مليئا بالجزر التى ساعدت النبى موسى على ان يعبر الى الجهة المقابلة .

ومن غير المشكوك فيه ان الهجرة حدثت من شبه الجزيرة العربية على نحو قبائل او مجاميع صغيرة وليس على نمط موجات لعدم وجود وحدة هدف مشتركة بالنسبة للقبائل المهاجرة من جهة ولاختلاف الطرق التى سلكتها من جهة اخرى اضف الى ذلك ان الهجرات خضعت لدافعين مهمين الاول هو قوة الحضارات المدنية فى شبه جزيرة العرب عسكريا وسياسيا مما حدى بالغزاة والمهاجرين الى سلوك وسائل اخرى يستطيعون بواسطتها الحصول على مكاسب معيشية أفضل والثانى هو انتصار القبائل المغيرة وهدم الحضارات القائمة فى المناطق الاكثر قابلية للحياة الحضرية فى شبه الجزيرة العربيةمما قد يصاحبه تفكك هائل فى تلك المجتمعات وفقدان الكثير من رجال السياسة والادارة والعلم تضطرب بفقدهم اجهزة الدولة الادارية والفنية فيقل الانتاج ويصبح الاقتصاد فى عسر شديد يدفع

بالمتصرين والمنكسرين الى ايجاد أرض جديدة للخروج من المأزق الـذي هم فيه •

واهمية هذا النقاش لفكرة الموجات التي خرجت من شـبه الجزيـرة العربية ترجع الى غرس بعض المفاهيم المغلوطة فى اذهان الناشئة العـرب مما قد يضيف تعقيدا فوق ما يشعرون به من تعقيدات ، وفحوى ذلـك ان التأكيد على خصوبة الارض فى القديم وتحولها المفاجىء يترك بعمق فى نفسية الفرد العربي شعورا خفيا بالاسى والحنين الى الجنة المفقودة التي خضعت الى قضاء وقدر ظالمين لا سبيل للفرد فى مقاومتها مما يبدد ما تبقى للانسان العربي من قوة ذات وذلك بجعله ضحية (مؤامرة جيولوجية هائلة) ذهبت بغدرها ارضه الخضراء ومياهه الوفيرة واصبحت كلها صحارى يظلها العدم والخوف فى وقت يحتاج فيه المجتمع العربي الى تقدير واقعي لماضيه وحاضره خصوصا ما يتصل بالارض التي يعيش عليها لكي يبعد الفرد العربـي عـن ذهنه (عشق الارض) ويبدأ بالنظر اليها كواسطة للانتاج فحسب وبذلـك يزداد تصميمه على العمل من جهة وتقل تطلعاته الرومانتيكية وتصوراتـه الخيالية للماضى من جهة اخرى •

فالارض العربية أرض صحراوية ، وهكذا كانت فى الحقب التاريخيـة المنصرمة وعلينا ان نقر هذه الحقيقة الواقعية وان مسؤولية هذا الجيل هي ان يحيل الارض البور الى مزارع تبسط بالحياة والانتاج وبذا نبدأ مـن واقع نعالجه فى سبيل الافضل لا خيال يشبع حواسنا فنتصور خياله او ننهـزم •

وانطلاقا من هذا الواقع الجديد فان القومية العربية فى محتواها الاصيل هي رد الفعل الذي فرضته الطبيعة القاسية فى شبه جزيرة العرب على اولئك الذين عاشوا تلك الظروف القاسية وبذلك يكون العرب وارضهم ركـائز قوميتهم التي جعلت من تركيبها البشري وحدات متنقلة عاشت على مر التاريخ تحت اسم القبيلة أو العشيرة يضاف الى ذلك ان الخصائص العربية تظهـر بأجلى مظاهرها من كرم ونخوة وشجاعة ونكران للذات عندما يتوفر الجـو

الملائم لها حيث تسود الحياة القبلية التي يذوب فيها الفرد فى مصلحة القبيلة وتقسو فيها الطبيعة على الانسان وكأنها بذلك تمتحن ما يتحلى بـه سلوك فالكرم لازمة طبيعية فى مجتمع تندر فيه متطلبات الفرد الاساسية ويفتقـر الاجتماع الانساني الى موازنة بين ما تقدمه الارض ويستهلكه بنو الانسان مع الافتقار الى ما يؤمن التوزيع العادل تلبية للحاجات الاساسية للافراد • اما النخوة ونكران الذات والشهامة فانها اوجه للسلوك الاجتماعي تميز بها العرب لكي تكتمل ردود الفعل العربية بالنسبة لما يحيط بقوميتهم من طبيعة صعبة وظروف حياتية ولكن هذا التعليل قد يبدو قليل القيمة فى اعين نفـر ممن يودون استعمال التعابير الضخمة وحشر بعض المعلومات التي تعكـس ظلا ثقافيا ثقيلا ولكنها تخالف ابسط مركبات القومية العربية فقد يذكر كلام حول تقسيم المدارس القومية التي ظهرت منذ عصر القوميات فى اوربا عـام ١٨٤٨ للميلاد ويصنفون هذه المدارس تحت عنوانين رئيسيين الاول المدرسة الالمانية والثاني المدرسة الفرنسية ويفرقون بين المدرسة والثانية بان المدرسة الالمانية تقوم على العنصر وأفضلية الالمان بالذات فهي قومية عدائية تنظـر الى القوميات الاخرى نظرتها الى كميات مهملة من البشر لا حق لهم فى الحياة • اما المدرسة الفرنسية فانها تؤمن بالثقافة كواسطة للتفاضل بين بشر وآخرين وبذا تكون اللغة وما يتصل بها من تاريخ وشعور مشـــترك هي الوسائل الرئيسة لتمييز بعض القوميات عن الاخرى •

ولكن كلتا المدرستين لا تنطبقان على ما نفهمه عن القومية العربية لان اوربا كانت ومازالت تخلط بين مفهومي الوطنية والقومية نظرا لوجـــود مصطلح واحد لهما فى اللغات الاوربية هو (ناشيونال) بينما يكون الخـط عميقا بين مفهومي الوطنية والقومية فى دنيا الامة العربية فقد تكون الوطنية عاملا يعترض التيار القومي فى الهدف والتخطيط والعمل لذا تسـعى القومية العربية الى تخطي الحدود الوطنية والانطلاق فى سبيل عمل عربي على الصعيد القومي فى الوقت الذي تؤكد فيه اوربا على الشعور القومي والارتفاع به الى مستوى الوطنية العالية (سوبر ناشيونال) او الوطنيـة

المترابطة (پان ناشيونال) وما يتصل بهذا كله من اشكال تجميع الشعور الوطنى كالفدرالية والكونفدرالية مما يختلف واقعه وفكره عما هو متعارف عليه فى الوطن العربى •

والواقع ان هذه المفاهيم ولدت وعاشت وتطورات فى اوربا لذا فهى بعيدة عن الجو العربى الذي تتنفس فيه القومية العربية وليس هناك من ضير فى دراسة التكوين التاريخى لمفهوم القومية فى اوربا ومقارنتها بما نعيشه من مفاهيم للقومية العربية اذا اريد التعرف على تجارب العمل والفكر الاوربيين والاستفادة منهما على صعيد العمل العربى مع ملاحظة عميقة للظروف المحيطة بالامة العربية وتطلعاتها فى سبيل المستقبل الافضل •

ان اوربا بما تميزت به من طبيعة متناقضة ومناخ متباين لم ترتفع الى مستوى الوعاء القومى وبذلك فقدت القارة الاوربية قوة التحدى الطبيعى التي تخلق شعورا مشتركا لدى سكان اوربا مما جعلهم يتفرقون فى ردود فعلهم تجاه قوة التحديات الطبيعية •

ولم تكن الاحداث التاريخية باكثر نفعا من الطبيعة نفسها التي حرمتهم رد الفعل الموحد فقد خضعت اوربا فى حياتها الى محاولتين جديدتين لتوحيدها فكريا وسياسيا الاولى ما قام به اليونانيون القدماء من تجارب للمعرفة انتجت نماذج عالية للسلوك السياسى والاجتماعي تميزت بها كتابات افلاطون فى الجمهورية وارسطو فى السياسة الا انها فشلت عندما اختبرت طواعيتها للعمل على يد الاسكندر المقدوني الذي اتجه بجيوشه صوب ايران والهند بدلا من ان يدخل اوربا ويجمع بين الفلسفة والحكم وبذلك يطبق ما كتبه افلاطون عن الفلاسفة الملوك •

وانهارت الجهود فى سبيل قومية اوروبية بعد ان فشل الاسكندر المقدوني وخابت مساعي اباطرة روما الذين تركزت جهودهم فى تأكيد ذواتهم عن طريق الارتفاع بحياتهم الخاصة والعامة فوق الناس انفسهم وبذلك نشأ فراغ نفذت منه التعاليم المسيحية لاعادة الطمأنينة والهدوء للفرد الاوربي التي فقدت نتيجة اطماع الاباطرة وحاشيتهم وتسخيرهم القوانين لخدمة مصالحهم

الخاصــة .

واتنصرت المسيحية فى روما ــ معقل الامبراطورية الرومانية ــ لا كما ارادها السيد المسيح جامعة للخير والسلام على هذه الارض والسعادة فى الدار الاخرى وانما ظهرت على مسرح التاريخ متمثلــة فى كنيسة قويــة خلطت تعاليم المسيح الخيرة بدماء شهداء المسيحية الاوائل واضافت اليهـا بعض جوانب من الفكر اليوناني الوثني والتشريعات الرومانية وبذا ولــدت قوة دينية يجب ان نطلق عليها اسم (المسيحية الاوربية) استطاعت ان تسيطر عن طريق باباواتها ورجال كهنوتها على الاوربيين فى دنياهم وآخرتهـم . وهكذا برزت محاولة ثانية لاشاعة الروح القومية فى طول البلدان الاوربية وعرضها الا ان رغبات الامراء الالمان فى شمال المانيا ما لبث ان حفزت رجلا خيرا مثل (لوثر) لكي يعلن نقمته على كنيسة روما وباباواتها مقتفيـا بذلك آثار (ارازمس) الذي حاول هو الاخر ان يقوم باصلاح الكنيسة دون ان يعرضها لاثر الهزة كما فعل لوثر .

وبتأثير هذا الاتجاه الجديد ظهرت حركة الاصلاح الديني التي اضاعت على اوربا فرصة كبرى فى خلق كيان قومي اوربي موحد ، وكانت خاتمة تلك اللطمات التي وجهت الى المحاولات القومية ظهور نابليون الاول على مسرح السياسة الاوربية ومحاولته فرض مباديء المسيحية الجديدة ممثلة فى شعارات الثورة الفرنسية على اوربا بكاملها .

وكما فشل الاسكندر المقدونى فى تطبيق الجوانب السياســية للفــكر اليونانى الهادفة الى اقامة نماذج حكم تشترك فيها اوربا واجزاء العالم آنذاك فشل نابليون فى مسعاه الجديد لضم اوربا فى دولة موحدة فاتحه ــ كمـا فعل الاسكندر من قبل ــ الى الشرق ولكن القومية العربية التي قضــت بالحمى على الاسكندر المقدوني انقلبت الى اشواك أدمت أقدام نابليــون وجنده مما اضطره الى ترك مصر والاتجاه ثانية نحو فرنسا واوربا مخلفا فى مكانه (كليبر) الذي اغتيل على يد سليمان الحلبى انتقاما لتحدي نابليون للقومية العربية ومحاولته السيطرة على لجنتها لتحقيق احلام اسطورية .

وجاءت سنة ١٨٤٨م لكي تبرهن للتاريخ وللانسان انتهاء احلام نابليون والكنيسة وقبلهما الاسكندر المقدوني فقد نشأ كرد فعل لمحاولات نابليون بونابرت شعور وطني تمثل فى قيام حكومات اوربية وضعت مصلحتها الوطنية فوق كل اعتبار متخذة من بعض الظواهر الطبيعية حجة لاقامة تلك الصروح الوطنية •

ولكن وجود التشابه بين التراكيب البشرية لمواطني الدول الاوربية فى شرق ووسط وجنوب اوربا جعل من خط الحدود خط بارود قابل للانفجار لانه فصل القومية الواحدة وضم اجزاءها الى دول متعددة مما اذكى الشعور المشترك بالوحدة بلغ مداه فى محاولة الطالب الصربى (برنزيب) التى انتهت بمقتل ولي عهد النمسا والمجر (الامبراطورية النمساوية المجرية القديمة) وزوجته فى سيراجيفو مما ادى الى نشوب الحرب العالمية الاولى •

وفشلت الحرب العالمية الاولى فى حل مشاكل تجزئة القوميات الا انها دفعت جهود الدول الاوربية الى توجيه الصعاب فى مشاكلها الداخلية نحو عمل مشترك بعيد عن اوطانها يعود بالكسب والفائدة على الدولة والفرد فى اوربا وبذا ولدت فكرة الاستعمار وانتقل الفشل القومى الاوربى الى محاولات منافسة بين الدول الاوربية للحصول على مناطق نفوذ فيما وراء البحار بلغت ذروتها قبيل الحرب العالمية الثانية التي اشعلت نيرانها سياسات التوسع الاستعماري وتكديس الثروات فى ايدى الغامرين من ابناء الطبقات الوسطى فى المجتمعات الاوربية التى تضع مصلحتها الخاصة فوق أي اعتبار وطني او قومي مثلها فى ذلك مثل اباطرة روما وحكامها ورجال الاصلاح الديني فى اوربا ومن التزمهم من الامراء الالمان الشماليين فى بادىء الامر والملك هنرى الثامن الذي ضحى بالكنيسة والشعور الاوربى المشترك فى سبيل تخلصه من زوجته كاترين وزواجه بآن بولين •

أما فى العصر الحاضر وعلى الاخص فى فترة مابعد الحرب العالمية الثانية فأن وجود قوى متضاربة تمتلك اسلحة دمار مخيفة قضت كل ما بقى من شعور

قومي ودفع اوربا الى ان تميز واقعها بدول صغيرة تستطيع ان تسند نفسها بنفسها فيما يتعلق بسياستها الداخلية محققة بعض المكاسب فى الداخل أما على الصعيد الدولي فأن معظم الدول الاوربية انتظمت فى تكتلات سياسية كبيرة تحمل كل منها صبغة او صبغات سياسية مختلفة وبذلك ضمنت لنفسها حياة دولية تحت حماية مظلات كبيرة مكونة من اسلحة تقليدية فتاكة او ذرية مجنونة •

وبذا فقدت اوربا كل شعور بالقومية واصبح من الصعوبة بمكان اطلاق لفظ (امة) على شعوب اوربا وفضلت لفظة (الدولة) او الوطن لان تعبير الامة يحمل فى طياته ـ كما يحاول بعض الاوربيين والامريكيين تصويره ـ معنى التعصب والتكتل والعدوانية أما الدولة فانها تعكس مفهوما سياسيا يرتبط فيه الافراد برباط المواطنة عن طريق رسم حقول الحقوق والواجبات مما يختزل الفرد الى مسمار فى ماكنة الدولة الادارية والسياسية تحركه دوافع اهمها ان يحصل لنفسه على ما يسهل له عيشة كفرد فى اسرة تتوفر لها سبل الحياة لجيلها فى الحاضر والمستقبل •

فالقومية العربية بدأت كرد فعل للطبيعة قابل للحركة وخاضع للهدف ولكن اين تقف اللغة كعامل من العوامل التكوينية للقومية العربية ؟•

والواقع ان الدراسات المتنظمة عن اللغات التى سادت فى الحضارة القديمة سواء أكان ذلك فى المدنيات حيث الاستقرار والتقدم الحضارى او فى الصحارى والبوادي حيث تجول العرب للحفاظ على ميزة طابعهم القومي الاصيل وليشعروا بتحدي الطبيعة لهم ، هذه الدراسات لم تعكس ما يفهم قيام لغة موحدة على صعيد الوطن العربى فى القديم فقد نشأت الهيروغلوفية فى مصر والتي هي اشتقاق لغوى للغات محلية تأثرت باللغات التى قدمت من اواسط افريقيا وتلك التى ازدهرت على الشواطىء المصرية واليونانية فى البحر الابيض المتوسط •

أما المسمارية فى وادى الرافدين فهى ابتكار محلى تأثر بالحاجات

الاجتماعية التى كانت سائدة فى تلك الحقبة التاريخية واهمها دافع الاستيعاب والمرونة واختزال التعقيد فى الرسم والتعبير حتى يتفق وما وصلت اليه حضارات بلاد ما بين النهرين •

وتمثل الفنيقية والكنعانية لغات جماعات من العرب تأثرت بما يحيط بها وعلى الاخص فى المنطقة التى عاشت فيها الحضارات الفنيقية والكنعانية حيث المواصلات البحرية التى تفتح طرق التأثير والتأثر بين الاطراف ذات العلاقة بالبحر ومسالكه التجارية ، ومن اقرب ما توصف به اللغات العربية فى سواحل بلاد الشام ــ فينيقيا ــ وارض كنعان ــ فلسطين ــ بانها شبيهة بالسواحيلى اليوم وهي اللهجات التي يتكلم بها سكنة السواحل في افريقيا الشرقية مع فارق فى التركيب السكانى ورسم الحرف والاداء طبعاء

أما اللغات التى سادت شبه الجزيرة العربية فى تلك الفترة السحيقة فان الحضارات التى قامت فى اليمن لم تخلف لنا ما يكشفه عن لغاتها او لهجاتها وان شمخت بآثارها فى الفن والهندسة فوق التاريخ والعدم وكذلك حضارات شمال الجزيرة العربية هى الاخرى اندرست آثارهاوضاع ما نستدل به على لغاتها • الا ان هناك رأى تقليدى يقسم العرب الى اهل الجنوب واهل الشمال فيطلق على الجنوبيين اسم القحطانيين وعلى سكنة الشمال تعبير العدنانيين وما وصلنا فى الواقع لغة اهل الشمال اوالعدنانيين وعلى وجه الدقة لغة قبيلة منهم هي قريش •

وهذا الرأي لا يخضع للنقاش الموضوعي والا فكيف جاز لنا ان نفصل بين العرب فى الجنوب وابناء جلدتهم فى الشمال وما هو خط الحدود بين عرب الشمال وعرب الجنوب ؟ وهل ان مجرد الاسم او القيد المكانى هما العاملان اللذان يقطعان الصلة بين ابناء الامة والقومية الواحدة لكى يتصدر العدنانيون الافضلية فى قائمة الاختيار وتحوز قريش القدح المعلى ؟•

والواقع ان العرب فى شبه جزيرتهم فى ذلك الوقت الموغل فى القدم كانوا امة واحدة عاشت فى الشمال وفى الجنوب وفى شرق الجزيرة وغربها حسب ما تفرضه ظروف الحركة والحياة والا فكيف تمت نجدة سيف بن

ذي يزن ونصرته على يد ما يسمى بالقبائل الشمالية وكيف تم الاتصال بين القبائل على الرغم من وجود الفواصل بينها ثم كيف أمكن التفاهم بين أفراد القبائل الشمالية ومن تعرض للعدوان الخارجي من عرب الجنوب ؟

فمسألة تقسيم الكيان العربى فى القديم الى شمال وجنوب محاولة قصد منها تفتيت الشعور القومى من جهة وايجاد تخطيط منطقى لظهور اللغة العربية من جهة اخرى لأن عرب الجنوب كما يطلق عليهم كانوا أهل مدنية واستقرار وتقدم فى مجالات الهندسة وبناء السدود مما يؤكد وجود حصيلة مكتوبة من العلم والمعرفة لأن بناء السدود وصيانتها وكذلك التحكم فى مشاكل الرى والزراعة تحتاج قبل كل شيء الى تقدم نظرى فى مجالات الهندسة والاقتصاد يستفاد منها فى عالم الواقع عندما تمارس عمليات البناء والصيانة ، ولكننا لم نستطع أن نعثر حتى وقتنا هذا على ما يدلنا على اللغة ونمطها فيما يسمى بحضارات جنوب الجزيرة العربية مع التأكيدبوجود لغة مكتوبة كانت المحور الاساسى فى التقدم النظرى والتكنولوجى اللذين بلغتهما الحضارات فى اليمن قديما .

والهدف الذى نصل اليه من خلال دراساتنا للغة كعامل قومى بالنسبة للعرب هو ان القومية العربية تختلف أطلاقا عن غيرها من القوميات كالالمانية أو الايطالية لانهما كلتاهما كانتا وليدتى اللغتين الالمانية والايطالية فى حين أن قومية العرب وجدت قبل اللغة العربية لان القومية بالنسبة للعرب حياة واللغة لا تعدو كونها واسطة لذا فهى متأخرة عن الحياة نفسها .

أضف الى هذا أن اعتبار اللغة المحور الذي تدور حوله القومية العربية يختزل هذه القوة الهائلة الى مجرد قوالب تتفق مخارج حروفها ويقطع عنها عناصر الفكر الثورى والعمل السياسى وما يتصل بهما من ديناميكية الحركة والتضحية والتفاعل ويجعل من القومية صورة أدبية يلعب فيها السجع اللطيف والبيت من الشعر الموزون والمقفى الدور الرئيس .

وهذا هو السبب المهم فى غلبة العاطفة والاحاسيس المضطربة فى بسط قضية القومية العربية حيث لعب الادباء من رجال الفصاحة والبيان الدور

الاساسي على مسرح العمل السياسى العربى وغاصوا فى (بطون الكتب) فى سبيل العثور على بيت من الشعر او قطعة من النثر وردت فيها لفظة القوم أو ما يدل على هذا المفهوم •

فليس غريبا ــ وهذا اللون من التفكير الادبى والعاطفى يطغى على العمل القومي ــ أن تحتل قصيدة اليازجي التي يحث فيها العرب على (أن يتنبهوا ويستفيقوا) مكانة عالية وتنتشر بسرعة بين الاوصال المجزأة للوطن العربى آنذاك •

وقد يكون مناسبا التأكيد بان القصيدة كانت ناجحة فقد حاولت ان تملأ الفراغ الذى شعر به الفرد العربى فى تلك الفترة من تأريخه وليس هناك من نقد يوجه اليها لو اننا عشنا فى تلك المرحلة التى انعدم فيها العمل السياسى المنظم ولكن ما يؤخذ على هذه القصيدة هو انها ابتكرت اسلوبا خياليا ممزوجا بالعاطفة لعرض قضية من اخطر قضايا العرب الا وهى العمل فى سبيل ترجمة الشعور القومي الى عمل سياسي ذي اجنحة اجتماعية واقتصادية وفكرية يقود الامة العربية الى وحدة فى العمل والمصير •

ومن المؤسف أن يحاول رجال الصناعة الكلامية التصدى لعرض مشكلات القومية العربية مؤكدين على اللغة كوسيلة لحلها كأن تبسط قواعد اللغة العربية ويؤخذ ببعض النظرات فى النحو والصرف دون غيرها مع جعل القومية والوحدة من الابواب الثابتة فى الشعر بنوعيه العامودى واللا عامودى الى تدبيج مقالات تزخر بالالفاظ ذات الجرس والرنين والاستهلال العذب والعرض السلس والخاتمة الشافية وترصيع ذلك كله بابيات تقطر اسى أو تتفجر حمسا الى آخر ما هنالك من أساليب تقليدية لجأ اليها المثقفون العرب فى منتصف القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وما زال البعض منهم يحاول أن يسير على النهج نفسه ناسيا ان الشعور القومى حياة يعيشها الانسان قبل أن ينطق بها ومن الافضل ان يتم تجسيم الاحساس دون مسخه الى الفاظ ، فالحس اقرب الى الحركة منه الى النطق واللغة بالاضافة الى ان الاساليب مهما بلغت من سمو اللفظ والمعنى لا يمكن ان تترك اثرها على

مسيرة التاريخ وتحقق ما تريده الامة من انجازات وهذه حروب البلوبونيز التى رجحت كفة اسبارطة على اثينا فى الوقت الذى بلغت فيها الاخيرة اوجها على يد بيركليس ولم تفلح الخطب البيزنطية فى الدفاع عن بيزنطية كما فشلت الخطب والقصائد ودور البيان فى كسب معركة فلسطين وما يدور فى الوطن العربى فى الوقت الحاضر من معارك التقدم والبناء والتصنيع •

فالعمـــل القومي فى الوقت الحاضر لم يعد مسؤولية الادبـاء مـن رجال القلـم والبيـان وانمـا مسؤوليـة الشـباب المثقـف الـذي يحس ويعيش قوميته التى تمثل بالنسبة اليه حياة وواقعا وتضحية ومصيرا وكم هو الفرق بعيدا بين عبدالعزيز البشرى والكواكبى من جهة وبـين مصطفى كامل ومحمد فريد ابو حديد من جهة ثانية فقد كان كل من عبد العزيز البشرى والكواكبى كاتبين جاهدا عن طريق الكتابة واختصرا قضية التحرر والاستقلال الى مجرد مقـالات مسبوكة اما مصطفى كامـل ومحمد فريد فانهما فهما القضية نفسها بشكل آخر وفضلا الحركة والعمل على القول والكتابة فاذا بهما يجولان اوربا ويستحثان ذوى الآراء النيرة من الاوربيين لنصرة قضايا التحرر فى الشرق العربى فتتأثر بهما جوانـب هامة من الرأي العالمي فى ذلك الوقت وينمو شعور على الصعيد الدولي لنصرة قضايا الحرية فى العالم •

فالقومية العربية دون تردد فوق اللغة وتعابيرها وشعرها ونثرها ومـا نحتاجه اليوم ليس شعراء او امراء بيان للقومية العربية وانما قوة مدركـة على قدر كبير من الفهم والعمل فى مجالى السياسة والتجربة تمتلـــك الاخلاص والخبرة فى التنظيم والقيادة وترتفع فى الوقت ذاته فوق الحوافز المعلولة كالمال والجنس والوظيفة لكى تستطيع التخلص من قيودها المحلية والطائفية والعنصرية والانتهازية فتنطلق فى عمل سداه التضحية ولحمتـه النضج فى الفكر والتجربة وهدفه بلوغ المستقبل الافضل لملايين الامـة العربية عن طريق ضمها فى وحدة شاملة •

هذا بالاضافة الى ان اللغة اذا ترجمت احاسيس لم تصل الى مستوى المسؤولية فى الفكر والحركة قد تنقلب الى فوضى فى فهم ما يريده الانسان

العربى عندما يخاطب نفسه او غيره فنكون بذلك قد اضفنا تعقيدات اخرى الى ما يشدنا الى البطء والتردد من مشكلات •

أما اذا قامت اللغة وما يتصل بها من اعمال ادبية فى خلق مناسبات خيالية تزيد من فائض الاندفاع العاطفي لدى الفرد العربي عن طريق تزويده بشحنات ذات دفع قوى كاستخدام الشعر او حث العواطفه بالوصف النثرى المؤثر ثم يترك الفرد العربي دون أن توجه الطاقات المستحثة فان ذلك قد يثير لدى الغالبية من شباب الامة العربية ممزوجا بالرغبة فى تحمل سريع دون وعى أو تخطيط او قد ينقلب الاحساس لدى ناشئة وطننا العربي الى سلوك يتميز بالتردد واللا مبالاة وترك الاحداث تجرى حسب ما توجيه الصدفة او العبث •

وليس هناك من مبالغة بان نسبة الانتحار والاصابة بالامراض العقلية والقلبية قد ارتفعت منذ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ م لان شباب العرب عاش الكارثة باعصابه وان لم يستطع ان يشارك بها عمليا فى الوقت الذى كانت فيه عمليات المتاجرة باسم فلسطين وتحريرها والقضاء على اليهودية والصهيونية تصب بشكل مقالات وقصائد وخطب وبيانات وتصريحات افقدت كل صلة تربط السياسة التقليدية فى الوطن العربى بالشعور القومى ومنعت قيام تجاوب بين الحاكمين والمحكومين انتهت بهزات عنيفة للتخلص من ساسة الكلام ومغامرات الظلام •



دراسات في القومية العربية

منشورات الطليعة العربية في تونس

نوفمبر 1989